أصول عبادة أمون
في المغرب القديم

حارش محمد الهادي

كان أمون الإله الأعلى للمغاربة، وكانت عبادته منتشرة على نطاق واسع، وفي كل أرجاء المغرب، حيث عثر على آثار ورسوم صخرية، تمثل هذا الإله على امتداد الأطلس الصحراوي، والهوقار، والتاسيلي، وهو ما دعا غوستاف مرسيي (1) (G. Mercier) إلى اقتراح وجود في نوميديا إله محلي أعلى، مستندا على النص التالي : «Deo Num (idorum) Mag (No)»

وهناك أيضا ما يشبه هذا الاقتراح عند هنري باسي (2) (H. Basset) الذي يرى بأن أمون كان الإله الأكبر الذي لم يكن مجرد رمز ومظهر سحري. وعبادة المصريين لنفس هذا الإله، أثار العديد من التساؤلات حول أصول عبادة أمون، هل هي أصلية في بلاد المغرب أم وافدة إليه؟

ليس بمقدورنا الجزم ما إذا كانت عبادة أمون قد وفدت من مصر كما يذهب إلى ذلك بعض المؤرخين (3)، أم ان الجفاف الذي بدأ ينتاب الصحراء تدريجيا كان وراء انتقالها من المغرب إلى حوض نهر النيل. مع هذه الشعوب ذات اللون الأسمر التي دعاها الإغريق «الأثيوبيون» (4) وهو ما يحاول ليو دي بيلا (Léon de Pella) تأكيده، أي أن أمون انتقل من المغرب الى مصر، وهذا اعتماداً على ما نقله لنا جولود (5) :

حول مشكلة الاتصال بمصر[25]، لكن بن نابو[26] (Benabou) يرى أن الكبش ظهر كإله إفريقي مغربي (محط) مهما كانت التأثيرات المصرية القابلة للمناقشة.

وهناك اتجاه معاكس لما سبق، يرى وصول أمون الى المغرب عبر الصحراء الشرقية ومن هناك إلى الجنوب الوهراني، ومن هؤلاء دوفيرير[27] (Duveyrier) الذي يرى في الرسوم الصخرية بالسوس دليلاً على حضارة مغربية مسها جناح العبقرية لمصر القديمة.

اذا اخذنا بهذا الرأي الثاني، يحق لنا أن نتساءل عن الدوافع التي دفعت الإنسان المصري إلى الهجرة من حوض نهر النيل ـ حيث الخصوبة الدائمة ـ إلى المغرب ـ عبر الصحراء ـ حيث الجفاف المهلك؟ وما هي الظروف التي تمّ فيها هذا التنقل؟ هل تم ذلك في ظروف سلمية أم حربية؟ ومتى تمّ ذلك؟ هذا ما لم يقدم له أصحاب الاتجاه المذكور تعليلا مقبولا، علما أن الإنسان المصري، لم يهتم بالتوسع الخارجي، قبل أن يتعرض للغزو على يد الهكسوس[28]، هذا الغزو الذي كان في رأينا بمثابة جرس الانذار، الذي نبه المصري الى التوسع في الخارج، وكانت توسعاته مركزة على الشمال (بلاد الشام) والجنوب (بلاد النوبة)، أما الناحية الغربية، فكانت مصر تكتفي ببعض الحملات التي كانت تمس فقط المناطق الشرقية من ليبيا الحالية. وعليه هل يمكننا الإقرار بالاصول الصحراوية (المغربية) لعبادة أمون في المغرب القديم، أمر لا نستطيع الجزم به، لكننا نميل اليه للدواعي التالية:

1 ـ التغيرات المناخية التي عرفتها الصحراء الحالية، المتمثلة في التحول من الرطوبة الى الجفاف[29] كانت دافعا قويا وكافيا لجعل الإنسان يغادر المنطقة متجها نحو المصادر الدائمة للماء.

2 ـ قدم عبادة «أمون» في المغرب عنها في مصر، وذلك اعتمادا على المعطيات التالية:

أ ـ تماثيل الكباش أو التي تنتهي برأس كبش، التي وجدت في تمنطيط (إقليم توات) وتازروك (بالهوقار)، تصنف ضمن الصناعات الليثية التي تؤرخ ما بين 9500 ـ 7500 ق.م.

ب ـ الكبش المعبود في منطقة الطوارق. من الناحية المورفولوجية، انتقالي بين العنزة والكبش وهذا ما دفع جولود[30] إلى وضعه زمنيا (كرونولوجيا) ما بين 9500 ـ 7500 ق.م.

جـ ـ ارجع جولود[31] معظم الرسوم الصخرية للكباش في الجنوب الوهراني إلى حوالي 9500 ـ 7500 ق.م. وهو ما يعاصر ما يسمى بحضارة الفيوم في مصر، أماريقاس[32] (Reygasse) فبعد تحفظات 1931 والتي استخلص خلالها، بأن الرسوم الصخرية تعود إلى عصر النيولتيك من غير شك، أقرّ سنة 1932، واعتمادا على الدراسات التي قام بها أوبيرماير (Obermaïr) أن النيولتيك الصحراوي، يمكن أن يحدد زمنيا ما بين 6000 ـ 5000 ق.م.، ويكون بالتالي معاصرا لحضارات البداري (ما قبل الأسرات) في مصر، ويرى أنه من المنطق أيضا أن تنسب الرسوم الصخرية في الجنوب الوهراني، إلى العصر الحجري القديم الأعلى، إستناداً إلى خصائصها الفنية[33]، وهو ما يميل اليه أيضا فلامو[34]، الذي يقول أنه رغم التشابه الملموس بين الرسوم الصخرية للجنوب الوهراني ومثيلاتها في مصر فجر التاريخ[35]، إلى أن هذه الرسوم (رسوم الجنوب الوهراني) تترك إنطباعا وإحساسا كاملي الغرابة عن الفن المصري، فهي عموما في شكلها أقرب الى الطبيعة، وأقرب من أصول الفن.

د ـ عبادة أمون ظهرت وترعرت في إقليم طيبة في عصر الدولة الوسطى. والمعروف تاريخيا أن الإله «رع» كان الإله الأعلى لمصر في عهد الدولة القديمة. ونتيجة انتقال مقر الحكم من «منف» إلى «طيبة» التي كان فيها «أمون» الإله الإقليمي[37]. حدث امتزاج بين «أمون» إله طيبة. الذي دخل إليها من المنطقة الغربيه و«رع» إله الدولة القديمة، فظهر «أمون ـ رع» وهذا المزج ليس الأول من نوعه، إذ سبق للفينيقيين الذين استقروا في قرطاجة أن مزجوا بين «بعل» الإله الفينيقي و«أمون» الإله الأعلى في المغرب، فظهر «بعل ـ حمون» أو أحسن «بعل ـ أمون»[38]، وكذلك فعل الإغريق الذين استقروا في قورينة، والذين مزجوا بين

«زيوس» إله الإغريق و«أمون» إله المغاربة فظهر «زيوس ـ أمون»[39]، وهو أيضا ما فعله الرومان الذين عبدوا «جوبتر ـ أمون» فيما بعد.

هـ ـ رغم بعض التباين، الذي نلاحظه بين مختلف الآراء التي قدمناها، غير انها تتفق على قدم هذه الرسوم، لدرجة أنه لو أخذنا برأي فوفري[40] (Vaufrey) الأكثر حذرا، والذي يعيد هذه الرسوم الى حوالي 4500 ق.م.، لوجدناها أقدم في المغرب منها في مصر، وبالتالي تكفينا للقول أن عبادة «أمون» أقدم في المغرب منها في مصر، والتأكيد على أن كباش الرسوم الصخرية بالجنوب الوهراني، غير مدينة لأمون طيبة الذي كان في طور الميلاد[41]، وهو ما دعا فلامو[42] إلى اعتبار «أمون الليبي» سلفا «لأمون طيبة» معتمدا على أن «أمون طيبة» لم يظهر إلى الوجود إلا ابتداء من عصر الدولة الوسطى (2100 ـ 1700 ق.م.) ومما يدعم هذه الفكرة ان «رمز القرص» رمز إله الشمس «رع» لم يصبح رمز الإله «أمون» إلا في الفترة الممتدة من أواخر الألف الثالثة، وأوائل الألف الثانية. فنتساءل كيف تغلغل وانتشر بهذه السرعة في كامل بلاد المغرب في فترة النيولتيك على أقل تقدير[43].

و ـ المعطيات السابقة تدعمها النصوص الكلاسيكية، التي تربط بين عبادة «أمون» عند المغاربة و«الكبش» فما كروبيوس[44] يذكر أن الليبيين يجسدون بقرني الكبش «الإله أمون» أما سرفيوس[45] فكان أكثر تحديدا. «الليبيون يدعون الكبش أمون» بينما خص القديس اثناسيوس[46] الليبيون بعبادة الإله الكبش الذي يسمونه «أمون».

بعد استعراض الحقائق السالفة الذكر، لا يسعنا إلى أن نقول أن بلاد المغرب ومصر كانتا منذ أكثر من ثلاثة آلاف سنة مسرحاً لعبادة الكباش المقدسة، واستمرت ممارسة هذه العبادة في كلا الوسطين حتى بعد ظهور المسيحية. والتشابه الموجود بين العبادة المغربية لأمون والعبادة المصرية لنفس الإله، يدل على عمق عقائدي مشترك ناجم عن اتصال مبكر بين هذه الشعوب المجاورة، والمؤكد أن خصوبة وادي النيل كانت وراء جذب المغاربة نحو مصر من جهة، كما كان للتصحر

الذي بدأ ينتاب المناطق الجنوبية للمغرب الدور الحاسم في دفع السكان للهجرة، بحثا عن المصادر الدائمة للماء، فكانت الهجرة في اتجاهين:

ـ إتجاه نحو الشمال والشمال الغربي ومن بقاياه الرسوم الصخرية بإقليم السوس، والجنوب الوهراني.

ـ إتجاه شمال شرق ماراً بفزان حيث انقسم إلى شطرين: شطر واصل سيره شمالا إلى اقليمي برقة وسيوة، والشطر الثاني نحو طيبة بمصر، فيكون بذلك المغاربة هم المكونون للعنصر السكاني الجديد الذي تحدث عنه علماء الانثربولوجيا في طيبة[42]، ويكونون بالتالي هم الذين نقلوا عبادة «الكباش» إلى هذه المناطق التي أرتادوها.

الهوامش:

(1) G. Mercier, *les divinités Libyques,* Rec. de Constantine, t. 34, 1900, p. 180.
(2) H. Basset, *les Influences puniques chez les barberes,* R. Af., t. 62, 1921, pp 367-368.
(3) Cf. Leglay (M.) *Satur ne africain* (Histoire) p. 429.

(4) أدّت بحوث ونكلر المعتمدة على إلى امكانية ترتيب الشعوب التي تظهر على الرسوم الصخرية المصرية، وتمييز مختلف الطبقات الشعبية والحضارية التي تعاقبت على وادي النيل، فبعد الصيادين الأوائل الذين قدموا من الغرب «الصحراء» والذين قطنوا مصر الآهلة بالأبقار والزرافات والفيلة. يذكر أيضا سكان الواحات الغربية، حول هذا الموضوع أنظر لقلي، المرجع السابق، ص 427.

(5) Léon de la Pella, in HYGIN, *Fragm.*historieca, graeca.II.p.332 N° 6, d'aprés Joleaud (l.) *Gravvres* Rupestres *et rites de l'eau en afrique du nord,* in Journal de la Société des Africanistes, t. 3, 1933 p. 256(6) Joleaud (L.) Loc. cit. et Moret (A.) *le Nil et la civilisation Egyptienne* p. 86.

(7) Moret (A.) Loc. cit.

(8) هذا يدعونا إلى الاعتقاد، أن نيت هذه، لا تكون إلا صورة أخرى لـ: «تانيت» المعبودة في المدن المغربية القديمة، خاصة قيرطا «قسنطينة» وقرطاجة، حيث تذكر في جلّ النقوش رفقة «بعل ـ أمون». وان كل ما في الأمر أن المصريين قد حذفوا منها الصدر (تا) الدال على التأنيث في البربرية.

(9) Lenormant (F.) *Histoire Ancienne de l'orient jusqu aux guerres mediques ed. A Levy, Paris 1887 p. 100*

(10) Maspero (G.) *Histoire Ancienne des peuples de l'orient,* éd. LAHURE, Paris 1885, p. 91.

(11) Berthelon (D.) *Essai sur la réligions des Libyens,* Revue Tunisienne, 1908, p. 481.

(12) اعتمد بيرثولون في إصدار هذا الحكم، على الحفريات التي قام بها فلاندرس بتري (Flinders Petrie) الذي ذهب الى وفود جنس جديد الى نقادة، وهي الحفريات التي دعمت آراء ماريت Mariette وماسبيرو ، أنظر بيرثولون، المرجع السابق ص 482.

(13) هذا ما تدعمه بحوث دي شاسلو ـ لوبا (F. de Chasseloup-Laubat) من جهة وبروي (l'abbé H. Breuil) ولوت (H. Lhote) من جهة أخرى، وهي البحوث التي أكدت أنه بعد هجرات الصيادين والرعاة من الصحراء إلى مصر ، جاءت هجرة الليبيين التي دفعت الرعاة الى الجنوب، أنظر:

F. de Chasseloup-Laubat, *Art rupestre au Hoggar,* Paris 1938.,
et Abbé H. Breuil, *Les roches peinte du Tassili-n-Ajjer* (Description analytique des peintures) dans Actes du 2e congrés panafricain de prehistoire, Alger 1952, pp. 73-124.
et l'Hote, *les roches peintes* du *Tassili-n-Ajjer* (Comparaison avec d'autre sites peints d'Afrique Septentrionale) Ibid. pp. 125-146.

(14) الرسوم الصخرية بالتاسيلي والهوقار وغيرها من المناطق الصحراوية، وما تمثله من حيوانات كوحيد القرن والزرافة وحيوان الرنة والأسد وغيرها. دليل على أن مناخ المنطقة كان شبيها بالمناخات الاستوائية الحالية.

(15) الدراسة المقارنة لرسوم هذه المناطق «السوس، الجنوب الوهراني، فزان» تؤكد على وحدة الطريقة والروح التي توجه الفنان ووحدة العيوب الملاحظة ؛ ففي فزان مثلا يلاحظ المرء أن الأرجل كانت مهملة من طرف الرسام، وهو ما نجده أيضا في الجنوب الوهراني والسوس، ونتوء الجسم الحيواني، لم يبين لا في هذه ولا في تلك. أنظر:

Duveyrier (H.) *sculptures antiques de la province Morocaine du Sous* dans Bull, soc. geog., t. 12, 1876 pp. 141-142.

(16) Cf. Flamand (GBM) *les pierres écrites gravures et inscriptions rupestres du nord-Africain,* Paris 1921 p. 358-359.

(17) Valdermar. Schmidt, in Cong. international d'archeologie et d'anthropologie prehistorique, 1900 p. 267 (d'aprés Flamand, op.cit. p.371

(18) Flamand., Loc.cit.

(19) Gsell (S.) *H.A.A.N.*, t. 1, pp. 252-253.

(20) Ibid., t. 6, p. 127.

(21) Ibid., p. 128.

(22) Flamand (G.B.M), op.cit. p. 370.

(23) Germain (G.), *le culte de belier en afrique du nord,* in HESPERIS t. 35, 1948, pp. 93-124.

(24) Leglay (M.) *Saturne Africain (Histoire)* ed. E. de Buccard, Paris 1966 pp. 422-423.

(25) Id. Ibid.

(26) Benabou (M.) *la resistance Africaine à la Romanisation,* éd. MASPERO, Paris 1976 pp. 276-277.

(27) Duveyrier (H.), op.cit. p. 144., et Leglay, op.cit. pp. 430-431.

(28) الهكسوس: «حكا ـ خاسوت» أي الملوك الرعاة، أو حكام البلاد الأجنبية ، هي شعوب غزت مصر حوالي (1660 ـ 1580 ق.م).

(29) ما نسميه اليوم بالصحراء ، كانت منطقة خصبة كثيرة النباتات ومغطاة بالغابات بدءا من نوع البلوط ـ الفلين إلى أشجار الأرز، وكثيرة الحيوانات في هذا الموضوع أنظر:

HUGOT (H.G) *le Sahara avant le desert* (coll. archeologie, horizons neufs) ed. des Hesperis 1974 p. 28.
et Moret (A.) DAVY (G.) des *clans aux empires (l'Organisation sociale chez les primitifs et dans l'orient ancien)* , Renaissance du livres Paris 1923 p. 136.

(30) Joleaud. op.cit. p. 266.

(31) Ibid. pp. 232-233.

(32) Reygasse (M.) *Contribution à l'études des aravures Rupestres du Sahara* central, dans cinquantenaire de la Fac. des lettres Alger 1932 pp. 532-533.

(33) Reygasse (M.) *les ages de la plarres dans l'Afrique du nord (*Algerie) dans Histoire et Historiens de l'Algerie, coll. du centenaire de l'Algérie, 1830-1930 pp. 57-58.

(34) Flamand (G.B.M) op.cit. p. 371.

(35) يعتبر جوردون ـ شيلد وبروي أن الرسوم الصخرية للهوقار والتاسيلي ، تعد أقدم من أقدم أي أعمال فنية في مصر، وتكون بالتالي قد اتخذت كنماذج لأقدم الرسوم في مصر، أنظر Legla , op. cit. p. 428 N° 1.

(36) يذهب البعض الى أن أقدم الرسوم الصخرية في مصر، هي رسوم مصر العليا التي تعود الى حوالي 4000 ـ 3500 ق.م. مما يوحي فعلا بحداثتها.

(37) Cf. Leglay, *Saturne Africain (Histoire)*, p. 427.

(40) Vaufrey (M.) *l'Art rupestre Nord Africain* (d'aprés Germain, op.cit. p. 107).
(41) Germain, loc. cit.
(42) Flamand, op. cit. p. 370.
(43) Supra, p. 4 N° 17.
(44) Macrobe, les Saturrelles
(45) Sarfius, commentaire sur l'Enéïde, IV, I, 21, 196-198 (d'apres Joleaud, op. cit., p. 255, et Germain, op.cit.p. 110 N° 5.
(46) Saint-Athanase, contragentes, 24.

(47) أنظر ما سبق.